شخصية الأمير عبد القادر بين السرد التاريخي والتشكيل البصري

في رواية ثائر من الجزائر للكاتب عبد القادر قسيمة.

أ.د نوال بومعزة

جامعة الشهيد حمه لخضر ـ الوادي ـ

المخلص:

مثّلت سيرة الأمير عبد القادر الجزائري محط إعجاب العديد من المفكرين والفلاسفة والشعراء والأدباء، وفي كل مرة تعاد كتابتها بطرق مختلفة،حيث تنكشف العديد من الجوانب والقضايا في شخصية الأمير لم تسرد من قبل. وقد اهتم السرد المعاصر ، وبخاصة في الرواية بهذه الشخصية الفذّة، فقد حاول الجيل الجديد الذي يحاول العودة إلى التاريخ وتقديم شخصية الأمير عبد القادر وفق رؤية سردية جديدة التشكيل، ومن أبرز هؤلاء نجد الكاتب عبد القادر قسيمة من خلال روايته " **ثائر من الجزائر**."

سيتم التركيز في هذه الدراسة على إبراز جوانب هامة من مراحل حياة الأمير عبد القادر وفق الخطيّة السردية التي انتهجها الكاتب في السرد ،حيث وظفت تقنية التناوب بين الخطاب المسرود المكتوب والخطاب البصري الذي جسّدته الرسومات التي صرّح الكاتب أنّها من أنامله رسمها بطريقة عفوية وبسيطة.

من هذا المنطلق تقوم إشكالية الدراسة على الآتي:

كيف حضرت شخصية الأمير عبد القادر في المتخيّل السردي الجزائري المعاصر؟ ما مدى انفتاح رواية ثائر من الجزائر على المادة التاريخية؟ ما دور الصورة البصرية التشكيلية في تقديم شخصية الأمير عبد القادر للقارئ؟ وما هي جماليات هذا التوظيف؟

طبعا، لاستقراء هذه الإشكاليات وتحليلها لابّد من الاستعانة بمنجزات السرديات الحديثة، خاصة آليات السرد التاريخي ومقولات التحليل السيميائي للصورة. ترتكز الدراسة على المحاور الآتية:

ـ جماليات السرد التاريخي لشخصية الأمير عبد القادر في رواية " ثائر من الجزائر".

ـ الأبعاد الفنية والتاريخية للعتبات النصية في الرواية.

ـ سيمائية التشكيل البصري في الرسومات الموضوعة في الرواية.

ـ التناوب بين السرد والصورة وجماليات توظيفها.

الكلمات المفتاحية: رواية التاريخية، الأمير عبد القادر، التشكيل البصري، السرد التاريخي، التناوب.

Abstract:

The biography of Prince Abdulkader Al-Jazairi was admired by many thinkers, philosophers, poets and writers, and each time it is rewritten in different ways, as many aspects and issues are revealed in the Prince's personality that have not been told before. The contemporary narrative, especially in the novel, has paid attention to this unique character, as the new generation, which is trying to return to history and present the character of Prince Abdelkader according to a new narrative vision, has tried to form, and one of the most prominent of these is the writer Abdelkader koussima through his novel " A Rebel from Algeria".

In this study, the focus will be on highlighting important aspects of the stages of Prince Abdulkader's life according to the narrative calligraphy adopted by the writer in the narrative, where the technique of alternating between the written narrative speech and the visual speech embodied by the drawings that the writer stated that they were drawn by him in a spontaneous and simple way.

From this point of view, the problem of the study is based on the following:

How did the character of Prince Abdelkader appear in the contemporary Algerian narrative Imagineer How open is the novel of a rebel from Algeria to historical material What is the role of the visual image in presenting the character of Prince Abdulkader to the reader And what are the aesthetics of such employment

Of course, to extrapolate these problems and analyze them, it is necessary to use the achievements of modern narratives, especially the mechanisms of historical narrative and the sayings of the semiotic analysis of the image. The study is based on the following axes:

-The aesthetics of the historical narrative of the character of Prince Abdelkader in the novel"A Rebel from Algeria."

-The technical and historical dimensions of the text thresholds in the novel.

-The semiotics of visual formation in the drawings placed in the novel.

-The alternation between narrative and image and the aesthetics of employing them

Keywords: historical novel, Prince Abdulkader, visual formation, historical narrative, alternation.

تمهيد:

اتجهت الدراسات التي تناولت شخصية الأمير عبد القادر إلى التركيز على الجوانب السياسية والعسكرية في سيرته، ولم يتمّ البحث المعمّق عن آثاره الأدبية المتنوّعة التي تبرز شخصيته كمبدع نظم في الشعر والتصوّف، وبرع في كتابة فن الرسالة. وحتى الدراسات الأدبية والنقدية التي اهتمت بالمنجزات الأدبية للأمير عبد القادر ركزت في محاورها على الجانب الشعري الذي أخذ حيزا كبيرا في كتابات النقاد والأكاديميين، فحين اتجه بعض الكتّاب

إلى سيرة الأمير عبد القادر يغترفون منها ويحوّلونها إلى إبداع سردي روائي يقوم بالدرجة الأولى على استحضار هذه الشخصية التاريخية الفذّة، التي تقدّم بطريقة سردية متخيّلة.

إنّ التركيز على تقديم شخصية الأمير عبد القادر بطريقة فنيّة متخيّلة من شأنه أن ينقل هذه الشخصية التاريخية من كتب التاريخ إلى عالم الرواية الذي يوّجه إلى قارئ تختلف مستويات قراءته ومحمولاته الفكرية والثقافية. ومن شأن الرواية أن تكشف الجوانب الانسانية والأدبية للأمير عبد القادر التي أغفلت في العديد من الدراسات. وفي هذا الصدد صرّح الباحث الأردني رضوان إيزولي:" أنّ الأمير عبد القادر قمة سامقة في عالم البطولة والجهاد والقيادة، وحتى الأدب الذي ملأه شرقا وغربا، أدى هذا التميّز والتفرّد إلى أنّ يكون محط إعجاب الساسة والقادة والعلماء والأدباء.."

[1] فحين أكدّ الأديب واسيني الأعرج أنّ " تغييب الشق الأدبي من حياة الأمير في مختلف البحوث والدراسات التي تناولت شخصه، غيبّت الأمير عبد القادر المبدع الذي منح حيّزا ضيّقا من التناول في هذا الشق، رغم أنّ العمل على أدب الأمير يقود إلى الخوض فيما هو صوفي، إلاّ أنّ هذا لا يمنع من كون الأمير ترك إرثا أدبيا لا يستهان به."[2]

أمّا الناقد الأكاديمي محمد مرتاض فيرى" أنّ حياة الأمير عبد القادر لم تقتصر على الجهاد ضدّ الفرنسيين والعمل على تأسيس أولى حكومة جزائرية فحسب، ولكنّها عنيت بالتوازي مع أولئك كلّه بالإبداع الفني شعرا ونثرا، وقد تناول الدراسون بعض الزوايا الخفيّة من حياته، وبعض الرسائل التي خطّها يمينه، ولكنّهم أغفلوا الكثير من نتاجه، لأنّ شخصية الأمير متعدّدة التخصصات وخصبة الإبداعات، كما كان نتاجه الأدبي مليئا بالجوانب الفنيّة التي طغت على أشعاره وما حمله من خلفيات ثقافية وتناصات تاريخية وتوصيفات تشبيهية وبلاغية وجمالية في الأسلوب."[3]

والجدير بالذكر أنّ شخصية الأمير عبد القادر أسالت حبر العديد من الكتّاب الغربيين الذين أعجبوا بهذه الشخصية، من مثل: الرحّالة سيقوين، والرحالة بيتم ادوارد، وما كتبه شارل هنري تشرشل عن حياة الأمير عبد القادر في كتابه:" حياة الأمير عبد القادر"[4]، أما من الناحية الروائية فقد اشتغل على هذه الشخصية الفذّة عدد قليل من الكتّاب العرب من مثل:

- عبد القادر الجماعي في روايته " ليلة الأمير الأخيرة".
- واسيني الأعرج في روايته "كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد ".
- عبد القادر قسيمة في روايته" ثائر من الجزائر".

1. الشخصية التاريخية في الرواية الجزائرية.

تؤكد الرواية التاريخية العلاقة الوطيدة التي تربط الرواية بالتاريخ، فهي لا تُكتب صدفة، بل هي نتاج تشبع الكاتب بالحسّ الوطني والقومي لمجتمعه، ونتاج قراءته العميقة لتاريخ أمته، ومن ثَمَّ يفرغ كل ذلك المخزون في عمل سردي متماسك البنيان. يبذل كاتب الرواية التاريخية جهدا إبداعيا كبيرا؛ فهو يعمل على تحويل المادة التاريخية الجامدة إلى مادة سرية إبداعية، فالكاتب يضيف إلى مادته التاريخ عناصر فنية وعاطفية، وتقنيات سردية؛ ليصل بالعمل إلى مستوى المتعة والتشويق وإقبال القارئ عليه. ويقول لوكاتش في هذا الأمر:" إن ما يهم في الرواية التاريخية ليس إعادة سرد الأحداث التاريخية الكبيرة، بل الإيقاظ الشعري للناس الذين برزوا في تلك الأحداث، وما يهم هو أن نعيش مرة أخرى الدوافع الاجتماعية والإنسانية التي أدت بهم إلى أن يفكروا ويشعروا ويتصرفوا كما فعلوا ذلك تماما في الواقع التاريخي"[5].

فالرواية التاريخية ليست مهمتها عرض الأحداث التاريخية بالدرجة الأولى، فكتب التاريخ والوثائق كفيلة بذلك. إن قيمة الرواية التاريخية تكمن في براعة الكاتب في استغلال الواقعة التاريخية، وانطلاقه منها لمعالجة قضية من القضايا الاجتماعية الحية المعاصرة؛ وصولا للوعي والهدف والاستفادة المنشودة وفق وجهة نظر الكاتب، وأيديولوجيته، والاستنطاقات التي يبثها في روايته. ولذلك فلا بد من عملية تكامل وتوافق يعتمدها الكاتب حين يلبس الحقيقة ثوب المخيال، فلا تعارض بين التاريخي والروائي، بل هو تفاعل كبير، فالتاريخي يرصد الأحداث، والمتخيل يحلق بها ويمنحها طابع الجمالية " إذ أن وظيفة التبليغ تنهض أساسا على الفنية، أي على الفزع إلى الجمال"[6]. فالخيال ركن أساسي في الرواية التاريخية، وإلا خرجت من أدبيتها وعالمها الساحر إلى الموضوعية العلمية والصرامة. ومن اطلاعنا المتواضع على الروايات العمانية المعاصرة استرعى انتباهنا اهتمام الكتّاب العمانيين بالتاريخ، واتكائهم عليه وعلى شخصياته ورموزه في استحضار الماضي العريق، وتلبيس التاريخي بالمتخيل، وتوظيف عناصر الثقافة المختلفة وصولا إلى الجمال الأدبي " فالتاريخ رموز وحيوات مليئة بالحياة والإيحاء، فليس مجديا إعادة تسجيله بهيكله، ولكن باكتشاف القدرات الحية الموحية والملهمة للإنسان"[7].

يعرّف نضال الشمالي الرواية التاريخية في قوله:" كلُّ ما في النفس من اهتمامها, بالنَّفس والمجتمع والتَّاريخ, والماضي, والحاضر من الحياة, والرواية هي فنٌّ كتابة الحياة دون ممنوع, والتَّاريخ من هذه المعطيات هو من أرفد الرواية فغذَّاها بمادة حكائية لا تنضب"[8].

تحاول رواية " ثائر من الجزائر " للكاتب الجزائري عبد القادر قسيمة استحضار شخصية الأمير عيد القادر بكل أبعادها بأسلوب سردي متخيّل، وهذا ما صرّح به في مقدمة الرواية: " لم تتوقف آلة الاستعمار الفرنسي عن القتل طيلة 132 سنة من احتلال الجزائر (1830ـ1962) فاستشهد الملايين من الجزائريين ورحلت أرواحهم إلى بارئها.. لكن بأرواخهم بقي الوطن الجزائري... ولم يرحل

لعّل ما يميّز كل زمان ومكان هي تلك الأرواح التي تسمو على بقية الخلق رفعة وتقديرا فتترك آثارا خالدة، ظاهرها الدنيوي يعترف به العدو قبل الصديق، وباطنها متصل بالسماء إلى يوم الدين.

سيرة الأمير عبد القادر الجزائري عملة نادرة وحمّالة أوجه مشرّفة، فقد أعطي السماحة والحكمة والفصاحة وقواعد العلم، وفضّل بشرف النسب الذي يمتد إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وسلمن وعرف يحسن التدبير والشجاعة والإقدام في ميدان الحرب، فكان رمز الجزائر والعرب وكل من يناضل لرفع الظلم والاستبداد في وجه المستعمر الذي لا تتغير أطماعه وأهدافه..مهما طال الزمان أو قصر."[9] إنّ هدف هذا المتخيّل السردي التاريخي هو إعادة الاعتبار لشخصية الأمير عبد القادر ، وبعث صورته في ذهن الأجيال الجديدة، وهو ما يثبته تصريح الكاتب في المقدمة:" إنّ هذا الإصدار هو تكريم للأبطال.. فهو يرسم بطريقة حوارية مرحلة واقعية تجعل القارئ بغادر الزمان والمكان، ضمن قالب روائي قصصي يحاحي مرحلة من مراحل النضال الطويلة في الجزائر، والتي كان الأمير عبد القادر الجزائري رفقة من عاصروه من أهله وخاصته في تلك البيئة الدينية البدوية أحد أبطالها، فامتد العطاء لأكثر من نصف قرن."[10]

يوثّق الكاتب عبد القادر قسيمة مراحل تاريخية هامة من مراحل التاريخ الجزائري الحافل بالأحداث والوقائع نقرأ:" وأغلب الشخصيات والمناطق الموجودة في هذه الرواية التاريخية هي شخصيات حقيقية ، وقد كتبت لالطريقة التي تلفظ بها في تلك المناطق .. ضمن إطار فني."[11]

2. طرق رسم الشخصية في رواية ثائر من الجزائر.

يعرّف محمود أمين العالم الرواية التاريخية بقوله: "هي تاريخ متخيَّل، داخل التَّاريخ الموضوعي، وقد يكون هذا التاريخ عامًّا أو جزئيًّا"[12]،فهو يقرُّ أنّ الرواية تاريخ يلعب فيه الخيال دورًا كبيرًا؛ حيث يحوّله من تاريخ موضوعي تقريري وواقعي إلى تاريخ متخيّل افتراضي، وقد يكون ذلك التاريخ عاما أو خاصا.

وتعد الشخصية التاريخية "جزء من الحياة والواقع، ولكنها لفتت الأنظار إليها بما قامت به من أفعال وأبرزت من قوّة فاقت ما اعتاد عليه الناس.فتناولوها، وسكبوا فيها مثلهم وطموحاتهم البطولية."[13]

12 . خاصية السرد في الرواية.

تنهض رواية " ثائر من الجزائر" على بنية الرواية التاريخية، و" الأحداث التاريخية والشخصيات التاريخية ليست مجرّد ظواهر كونية عابرة، تنتهي بانتهاء وجودها الواقعي، فإنّ لها إلى جانب ذلك دلالتها الشمولية الباقية، والقابلة للتجدّد ـ على امتداد التاريخ ـ في صيغ وأشكال أخرى."[14] تستعيد رواية " ثائر من الجزائر" تفاصيل حياة شخصية تاريخية عربية أقل ما يمكن قوله عنها أنّها نموذج إنساني عالمي سمحت مساحة العودة في الرواية لسرد مراحل هامة من حياة الأمير عبد القادر الجزائري، يمكن حصرها في المحطات الآتية:

ـ السيرة التعليمية في الأمصار العربية.

ـ السيرة الحربية.

ـ السيرة الإنسانية والفكرية.

وهي محطات فارقة في حياة الأمير من خلالها يمكن للسارد تتبع قدرات وميزات هذا القائد الفذّ، فالعودة إلى هذه المحطات التاريخية من شأنها أن تقدم رؤية سردية تعتمد على الخيال والتاريخ، وتعكس وجهة نظر الكاتب إلى شخصية الأمير. والمؤكد أنّ المتخيّل التاريخي يختلف كل الاختلاف عن الكتب والمصادر التاريخية " فالتاريخ تاريخ والأدب أدب. يمكن للباحث في حقل التاريخ بوصفه علما قائما بذاته أن يتصفح المصادر والمراجع التي يشتغل عليها في مضمارها. وفي إطار ها وجنسها الخاص. وهناك يمكنه أن يتحرى الصحة والدقة والحقيقة. أمّا الأديب فيحق له توظيف التاريخ توظيفا فنيّا، وهو غير ملزم بعقد الحقيقة التاريخية في رصد وبناء تيماته الفنيّة."[15]

فبتقنية التقديم والتأخير في الأحداث بدأ السارد بالمراحل الأخيرة من حياة الأمير عبد القادر وهو مريض في مدينة دمشق:" بدأ الشتاء مبكرا هذه السنة والبرودة الشديدة امتدت إلى أشهر الربيع .. الصحة لم تعد كسابق عهدها، والكل انتبه لشدة السّعال أثناء الدرس، يتوقف قليلا ثم يكمل .. الرجل تجاوز السبعين من العمر، فلم يدّخر جهدا طيلة حياته.. ولا يزال صامدا .. لعّل آخر أوراق شهر أيار/ مايو ستودّع أعظم رجالتها... جلس الأمير كعادته وساقه اليسرى مطوية تحته وهو يحرك حبات المسبحة .. وبعد أن أتمّ الدعاء وضع راحة يديه على وجهه ماسحا ومتذكرا ما مضى من السنين والأيام."[16] يشتغل السرد في هذا المقطع السردي على حيثيات دقيقة خاصة بشخصية الأمير، حيث يتسلل السارد إلى تفاصيل حياته في المنفى، ويظهره كما تلح عليه مخيلته الأدبية، من خلال عبارات من مثل: الصحة لم تعد كسابق عهدها، جلس الأمير كعادته وساقه اليسرى مطوية تحته وهو يحرك حبات المسبحة..لا يجد القارئ مثل هذا الوصف في كتب التاريخ، التي علقت مادته في مخيلة الكاتب وساقها على هذا النحو.

2.2ـ تقنية الحوار ومشهدية السرد في الرواية.

بين مسردية التاريخ، وعوالم الكتابة الروائية المتخيّلة يبحر الكاتب عبد القادر قسيمة في تفاصيل حياة الأمير عبد القادر متوسلا تقنية الحوار لإضفاء مشاهد حيوية للسرد تنقله من جفاف التاريخ إلى حركية السرد، وعناصر التشويق. إلاّ أنه كان أمينا في نقل المادة التاريخية التي تنحو بالرواية منحى التسجيلية في سرد الوقائع، وهو الاتجاه الذي أكدّه جورج لوكاتش الذي نبّه إلى ضرورة :" أن تكون الرواية أمينة للتاريخ، بالرغم من بطلها المبتدع وحبكتها المتخيّلة."[17] يعمل الحوار على تحقيق عنصر "معايشة الخصوصيات التاريخية المستهدفة بكل تفاصيلها لأنّ الكاتب لا يستهدف إعادة التاريخ بقدر ما يرمي إلى معايشة التاريخ."[18] فمن خلال هذه التقنية المهيمنة في الرواية تنكشف للقارئ مواطن الإنسانية والتعايش مع الآخر في شخصية الأمير عبد القادر ، وذلك من خلال

قدرة الكاتب المبدع على إنجاز نص لا ينضاف إلى الموجود السابق بقدر ما يضيف إليه ما لم يكن موجودا من قبل. تعمل المشاهد الحوارية على تقديم :

أ- مرحلة طفولة الأمير ، فيظهر فتى مطيعا لوالده، من خلال:

-"**عبد القادر**: أبي إنّ نسبي منك ومن والدتي يمتد إلى بيت النبوة إلى آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم,

- **الحاج محي الدين** : صلى الله عليه وآله وسلم، نعم يا بني، من الخيرة والعترة الهادية، وسليل النبي من الجانبين، ولكن لم تفضح إلى الآن ما بداخلك؟

- **عبد القادر**: أقصد بالحديث نحن الآن أقرب إلى الأرض التي احتوت النبوة، دعنا نبتهل من هنا إلى رب العالمين كي يزيح الغم والهم والأعداء عن وطننا الجزائر، فالأهالي كما تعلم يا حاج يشتكون جور وظلم المخزن وبعض الحكام..وكثيرا ما رأيت هذا الجور أثناء سفري للدراسة في وهران، وقد قلّدنا الأهالي الدعاء."[19]من خلال هذا النموذج يعد الحوار " وسيلة من وسائل السرد الروائي في رسم الشخصيات، والإبانة عن مستواها الثقافي والفكري والاجتماعي، كذلك تهدف إلى الكشف عن مدى التأثير والتأثر فيما بين تلك الموضوعات على شكل سرد روائي ينطوي على خصائص فنيّة عديدة."[20] لا يجد قارئ رواية "ثائر من الجزائر" صعوبة في فهم المشاهد الحوارية، فالنسيج اللغوي يقترب من لغة المحادثة العادية أو من الإجابات السهلة عن الأسئلة التي تطرحها الشخصيات، بيد أن الإجابات العادية تتسمّ بالبساطة ، والابتعاد عن الشرح والتحليل والتعليل والترميز.

ب . مرحلة السيرة الحربية للأمير عبد القادر.

اللغة هي السبيل الوحيد لكشف هذه الحقائق التاريخية، فالكاتب ينشأ ذاتا ثانية، هذه الذات تعمل على تقديم العالم المحكي في شكل معيّن، حيث لا مجال للمطابقة بين مقولة المؤلف والسارد (الرّاوي). "فالكاتب/المبدع مطالب بأن تكون له قدرات خارقة وغير عادية تمكّنه من إعادة تشكيل اللغة ليعلو عن المستهلك منها، ويتجاوز التركيب إلى الصياغة والتعبير."[21]

تؤدي الجمل الحوارية المباشرة دور توالي الأحداث بسرعة، حيث يقرر الأمير في هذا القسم مواجهة العدو ، نقرأ:

"- **عبد القادر**: وهو ما أفكر فيه، لكن علينا أن نبدأ الآن بخطوة جمع شمل القبائل وفض الخلافات وتكوين فرق من الأشداء تجوب السهول المجاورة وتضمن الحماية للأهالي الذين تركوا وهران، وفق ما أطلعنا عليه الشيخ بوطالب.

- الحاج محي الدين: عظيم هذا الأمر، سأزور الحاج علي بن سعدي في مدينة الجزائر، فما يقوم به هنالك أمر كبير.. لقد بلغني أنه بدأ في تنبيه الناس من جميع النواحي بما يدبّر للجزائر في الخفاء، وقد ذهب لمنطقة البربر طالبا منهم الاستعداد والتجنيد وضرورة إعداد الناس للكفاح المسلح."[22]

ج - المرحلة الانسانية والفكرية للأمير عبد القادر.

تختصر هذه المرحلة مسيرة طويلة من الجهاد واكتساب الخبرة في السلم والحرب، من خلال انتقال الأمير من الوطن إلى المنفى، فقد شكّل هذا التحوّل المكاني نقطة فاصلة في حياة الأمير عبد القادر،

ويمثّل المكان في الرواية مكوّنا محوريا في بنية السرد، ويساهم في تقديم الفكرة للقارئ، فهو قائم بالمعنى الروائي الذي يعبر عنه السرد،"[23] حيث تخضع الرواية إلى تنظيم مكاني حضر خادما للشخصية الروائية يحمل انفعالاتها، ويعكس مواقفها. ولأن المكان مرتبط بالزمان، "فيستحيل تناول المكان بمعزل عن تضمين الزمان، كما يستحيل تناول الزمان في دراسة تنصب على عمل سردي، من دون أن ينشأ عن ذلك مفهوم المكان في أي مظهر من مظاهره."[24] نقرأ ما ورد من مشاهد حوارية:

" **ـ الكورنيل دوماس:** لاأعرف ماذا أقول.. المهم الملك يبلغك أن تقيم في أرض فرنسا وسوف تعطى أماكن مناسبة لك ولأهلك إلى أن ينظر في أمرك.

ـ الأمير عبد القادر: أبلغه أني لا أقبل الإهانة لخاصتي ولا لأهلي ولا لنفسي في سجني هذا، والله لو فرشتم سهول فرنسا ومسالكها بالديباج..ما رضيت المقام بينكم، والله إن تأتوا لي بكل ثروات بلكم وتضعوها في ذيل هذا البرنس لرميتها في البحر الذي يلطم جدران سجني.."[25]

3ـ التشكيل البصري في رواية " ثائر من الجزائر".

يعمل الاشتغال التناصي في رواية "ثائر من الجزائر" على تجميع أكبر قدر من الخطابات داخل بنيتها الحكائية. وقد شهدت الرواية العربية الجزائرية مؤخرا انفتاحا واسعا على خطابات غير أدبية كالرسم والنحت، وفنون تشكيلية أخرى، لعلّ هذه الظاهرة لمست بشكل واضح في إبداع الكاتبة أحلام مستغانمي التي وضعت بطل روايتها رسّاماً يداعب الريشة والألوان، مثلما تداعب أحلام اللغة والكتابة. فالرواية الجديدة تعمل على إخراج خطابها بكل حرية، وتتعاطى مع الفنون ومختلف الأشكال التعبيرية الأخرى، فانفتحت أقسام الرواية على مشهدية فنيّة متميّزة، عناصرها اللون، والتصوير، فتحوّلت اللغة من أداة للكتابة والتعبير إلى أداة ترسم بواسطة اللغة تشكيلات فنية تنقل الواقع بطريقتها الخاصة. فقد "بات من الثابت أن الرواية، اليوم، تستلهم من مختلف الحقول الإبداعية الأخرى، مابه تغتني، فتوسع آفاق التخييل فيها وتؤسس لأشكال جديدة في الكتابة، فهي جامع لغات وحوارات، وهي تركيب لصور اجتماعية ونفسية مختلفة تتمازج وتتعالق إلى حدّ أنّه يعسر علينا في أحيان كثيرة أن نميّز فيها بين القديم والجديد، بين المعيش والمتخيّل بين الذاتي الخاص والمستقل عن الذات وهي تتفاعل مع الحياة وتكشف عن رؤيتها في سياق المكتوب."[26] تمارس رواية" ثائر من الجزائر" تجريبها لكل ما من شأنه أن يغني مساحتها النصية ففي الكتابة تبدأ الحرية من اختيار الوسائل والألوان والأشكال وتنتهي إلى تشكيل العالم على النحو الذي يرتضيه الكاتب."[27]ا لقد أعلن الكاتب في مقدمة الرواية أنه:" والمقاطع التاريخية في الرواية لربط الأحداث بعضها ببعض، وهي بمثابة الراوي للوقائع بإيقاع خاص، يضفي جمالية على تناغم الوقائع وتسلسلها، وما كتب بخط مائل فهو لتصوير الأماكن والأحداث، أما عن الرسومات فهي تلك التعبيرات الحسيّة بأنامل صاحبها العفوية والبسيطة وجدت لمزج روح تكميلية أخرى من الفن.."[28]

يدرك الكاتب أنّه إذا كان الأدب يمثل حالة إبداعية ترتكز في تجسيدها على الكتابة النصية أو الخطية، فإنّ الفن يمثل كل ما لا يتجاوز إمكانيات المبدع في التعبير عنه نصا مثل النحت والرسم. كما تقف بعض الفنون على نقطة تماس بين الكتابة الإبداعية والإخراج الفني مثل النص المسرحي . تتوّزع اللوحات التشكيلية التي رسمت بأنامل الكاتب على طول صفحات الرواية، وهي بذلك تحتل حيزا نصيّا هاما يحاول تلخيص مسيرة الأمير عبد القادر في شكل رسومات تنقل القارئ من السرد إلى الصورة ، وهي تقنية تجريبية تؤكد مدى قابلية الرواية على الانفتاح. وهو ما نلحظه في اللوحة الآتية:

تمثل هذه اللوحة التشكيلية شجاعة الأمير عبد القادر ، وقد تموضعت في القسم الخاص يالسيرة الحربية للأمير عبد القادر، تعمل هده اللوحات على لفت انتباه القارئ إلى فن السرد بالرسم ، فيمتزج الرسم بالتاريخ ، " فالعودة إلى التاريخ أحيانا محاولة للهروب من الواقع العربي المنهزم والضعيف سياسيا واجتماعيا وحضاريا بسبب الاحتلال الأجنبي على البلاد العربية في بداية القرن العشرين، وصعود روح القومية والرغبة في الاستقلال، ثم الحكم العربي الظالم، والهزائم العربية المتتالية بدء بضياع فلسطين 1948 حتى هزيمة 1967، وفقدان الأفق والأمل في الغد..كل ذلك دعا إلى البحث عن فترات المجد والقوّة والعظمة في التاريخ العربي الإسلامي، لإحيائها وبعثها من جديد وللتعبير عن رفض هذا الواقع الأليم، والدعوة إلى الثورة والتغيير."[29]

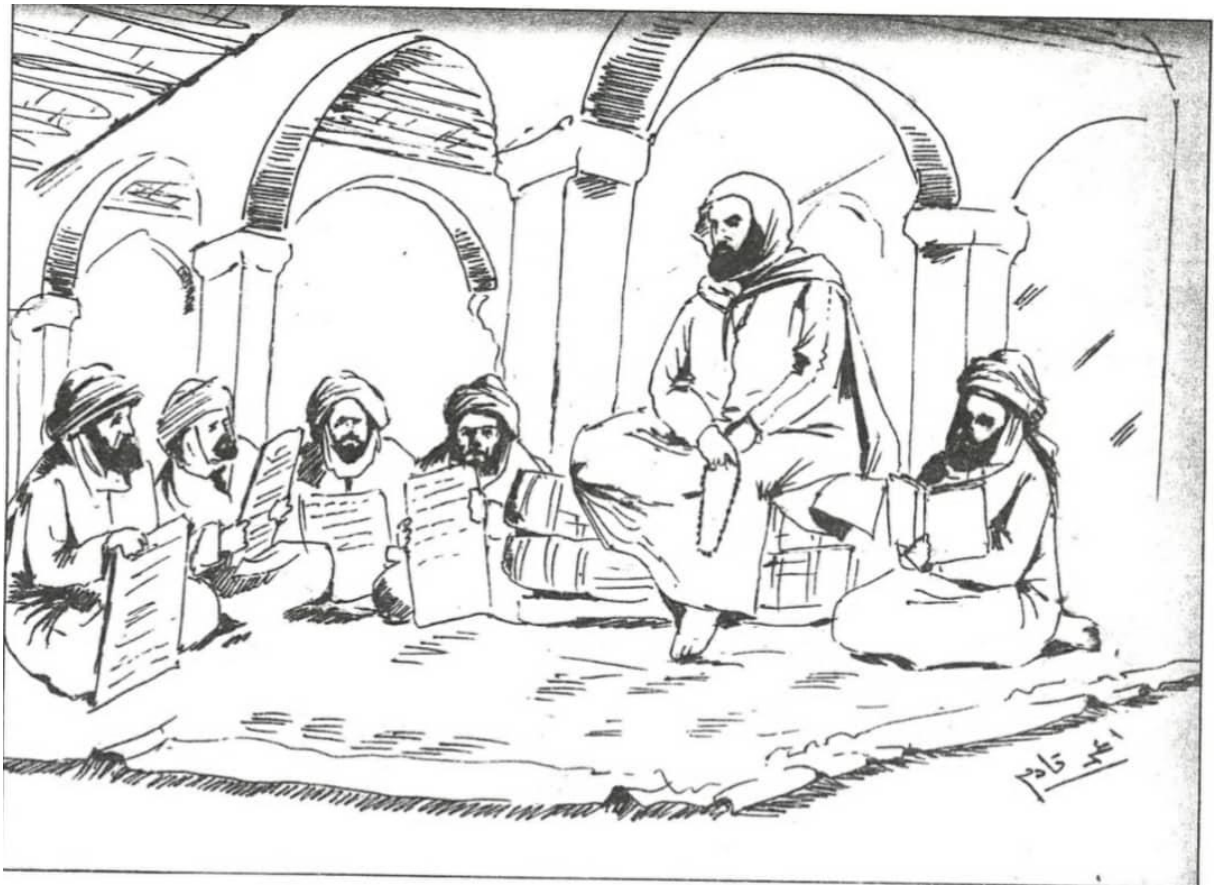

تؤكد اللوحات السابقة حياة الزهد والوعظ والإرشاد التي شغلت تجربة فريدة في حياة الأمير عبد القادر. لم يكتف الكاتب بالرسم بل رافق تلك التشكيلات بأبيات شعرية يتغنى من خلالها الشاعر مفدي زكريا بخصال الأمير وشجاعته. "وتتجسد القيم الإنسانية في النص عبر التشكيل اللغوي الدال على مرجعياته، وصيغ تنظيمه وتركيبه، فالكتابة الفنية الأدبية إنجاز يشبه عمل الموسيقي الذي ينتقي الأنغام ويرتبها،وفق جمل موسيقية ومقاطع صوتية، أو ما يقوم به الرسام، من تشكيل للظلال وتنظيمها،وفق هندسة خاصة،لإبراز ملامح دون أخرى أو إضاءة أقسام من اللوحة دون غيرها.."[30]

أيا عبد قادر كنت القديـرا و كان النضال طويلا عسيـرا

شرعت الجهاد فلبّـاك شعب وناجاك ربّ فكـان النصيـرا

و نظّمت جيشا و سُسْتَ بلادا فكنت الأمير الخبير الخطيـرا

و ألهبت في القابعين الحنايا و أيقظت في الخانعين الضميرا

أتاح الشعر للذات، وللصوت المنفرد، والفردي بالإعلان عن نفسها، كما يتداخل الشعري في النثر، وأصبحنا نرى نصوصا شعرية تقتحم مجالات كانت محصورة في النثر، حيث طغى الصوت الشعري بعد أن تخلص الشعر ذاته من القيود التقليدية، وأصبح الشعر نفسا دافقا يتسرّب إلى الأفعال الكلامية، ويتخذ لنفسه صورا بلاغية عدّة كالحكي المتدفّق والمتسارع الإيقاع، وتبنى الذات الكاتبة الأفعال الكلامية، واختلالها مكان الذات الكاتبة الأفعال، الكلامية واحتلالها مكان الشخصية والتحدث عن نفسها في صيغة المناجاة أو التفرّغ أو التوجّع أو التفجّع أو البوح والاعتراف."[31] تنمو هذه الخاصية وتتكاثر بشكل ملفت للانتباه في روايات السيرة الذاتية التي "تتّخذ من الحياة الشخصية مادة لها. ويفترض في هذه المادة أنها منتمية إلى الحدث الملموس، والذي يقبل التسجيل والتأريخ، مما يجعل من المماثلة بينها وبين حياة الكاتب لا المؤلف."[32]

وصفوة القول إنّ الميل نحو التجريب الروائي يُعد حتمية لا مناص منها، فتلجأ الرواية إلى التلاعب بأنظمة السرد كميزة تفتح التجربة الروائية العربية على مجال التجريب الواسع، حيث تتعدّد أساليب التفاعل النصي، فالتجريب لا يستهدف تطوير وتنويع الكتابة بقدر ما يسعى إلى إنتاج عنصر، أو عدة عناصر، تتعلق بعدة مقومات وخصوصيات نصية. وهو ما تبحث عنه الرواية العربية "بتعبيرها عن التعددية الصوتية والحوارية، وعكس مساحات الأعراف والتقاليد، والعادات المتوارية داخلها.

اشتغل الكاتب عبد القادر قسيمة على التاريخ في رواية " ثائر من الجزائر " ، فاستحضر شخصية الأمير عبد القادر بكل تجلياتها، فكانت تقنية الحوار هي الأبرز، والتي حاكت مشهدية السرد ، فكان التركيز على الأقوال المتلفظة من الشخصية مباشرة، كما رافقت لوحات رسم تشكيلية العملية السردية في الرواية، فكانت بمثابة تنفيس للقارئ، وتغيير لجو القراءة، فتحضر جمالية التشكيل البصري الذي يتضافر مع السردي مشكلا نصا تاريخيا متفرّدا بخصوصيته التي تجعله يتجاوز حدود إعادة التاريخ.

الهوامش:

[1]. الاتجاه الأدبي عند الأمير عبد القادر الجزائري، 17 الأحد 2012، من الموقع الإلتكروني:
https://clsadrar.arabepro.com/t70-topic

[2]. المصدر نفسه.

[3]. م ن.

[4]. شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، تر: أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر،تونس،1974.

[5]لوكاتش، جورج، الرواية التاريخية، ت: صالح جواد الكاظم، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، بغداد، 1986، ط2، ص46.

[6]مرتاض، عبد الملك، نظرية النص الأدبي، دار هوما، ص2007، ص83

[7]باي، عز الدين، في الخطاب السردي، دراسات جزائرية، دورية محكمة يصدرها مختبر الخطاب الأدبي في الجزائر، جامعة وهران، ص131

[8] نضال الشمالي، الرواية والتاريخ، بحث في مستويات الخِطاب في الرواية التاريخية العربية، عالم الكتب الحديثة، الأردن، (دط)، 2006م، ص109.

[9]. عبد القادر قسيمة، ثائر من الجزائر، دار النفائس، بيروت لبنان، ط1، 2015، المقدمة.

[10]. م ن، المقدمة.

[11]. م ن، المقدمة.

[12]محمود أمين العالم، أربعون عاما من النَّقد التطبيقي، البنية والدلالة في القصة والرواية العربية المعاصرة، دار المستقبل، مصر، (دط)، 1994م، ص26.

[13]– محمد التونجي، الآداب المقارنة، دار الجيل، بيروت، ص83.

[14]. زايد علي عشيري، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997، ص120.

[15]. بوهلالة أمحمد، شخصية الأمير عبد القادر الجزائري في رواية "كتاب الأمير" لواسيني الأعرج، مجلة دراسات وأبحاث، المجلد 14، السنة 14، عدد 4 ، أكتوبر 2022، ص57.

[16]. عبد القادر قسيمة، ثائر من الجزائر، ص12.

[17]. جورج لوكاتش، الرواية التاريخية، تر: صالح جواد الكاظم، دار الثقافة والإعلام، بغداد،ط2، 1986،ص215.

[18]. محمد الأمين بحري، تمثّل التاريخ في الرواية الجزائرية المعاصرة، مجلة الكلمة، العدد119، مارس 2017، من الموقع الإلكتروني:

[19]. عبد القادر قسيمة، ثائر من الجزائر، ص16.

[20]. عبد الرحيم حمدان، تقنيات الحوار في رواية ليل وأسئلة لمحمد النصار، الأحد 18أبريل 2021، من الموقع:
http://www.alkalimah.net/Articles/Read/8865

[21] مخلوف عامر، مظاهر التجديد في القصة القصيرة بالجزائر (دراسة)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1998، ص 17.

[22]. عبد القادر قسيمة، ثائر من الجزائر، ص55.

[23] حميد لحميداني، بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب،ط1، 1991، ص 71.

[24]– عبد الملك مرتاض، تحليل الخطاب السردي، ص 227.

[25]. عبد القادر قسيمة، ثائر من الجزائر، ص157.

[26] عمر حفيظ، التجريب في كتابات إبراهيم درغوثي القصصية والروائية، دار صامد للنشر والتوزيع، صفاقس، تونس،ط1، 1999، ص 54.

[27] م، ن، ص 15.

[28]. عبد القادر قسيمة، ثائر من الجزائر، المقدمة.

[29]. محمد حسن طبيل،تحولات الرواية التاريخية في الأدب العربي، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية، كليّة الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة، ص08.

[30]– عمرو عيلان، الإيديولوجيا وبنية الخطاب الروائي، ص38.

[31] علي محمد المومني، الحداثة والتجريب في القصة القصيرة الأردنية، ص204، 205.

[32] عبد الرحيم جيران، في النظرية السردية، رواية الحي اللاتيني، مقاربة جديدة، إفريقيا الشرق، المغرب، الدار البيضاء، 2006، ص 19.